اقتصادية بمحض الصدفة

هيون-سونغ كانغ يعرض لمحة عن **ليزا كوك**، الأستاذة بجامعة ولاية ميشيغان، التي توضح كيف أن العنصرية والتحيز الجنساني يضران بنا جميعا

كانت ليزا في الثانية أو الثالثة من عمرها عندما اصطدمت — حرفيا — بقضية العنصرية العرقية، حيث هاجمها الأطفال في دار الحضانة بجورجيا ونعتوها بلفظ عنصري، وتركوا أعلى عينها اليمنى ندبة لازمتها طوال حياتها.

تقول كوك «لم أدرك إلا بعدها بكثير أن ذلك اللفظ مرتبط بالعنف، العنف العنصري تحديدا، وتاريخه الحقيقي». ومنذ تلك اللحظة، حملت عالمة الاقتصاد على عاتقها قضية العنصرية العرقية سعيا للبحث في نقطة التقاطع بين التجربة الحياتية للأمريكيين الإفريقيين والاقتصاد الكلي.

وفي مهنة تُنتقد بشدة لتحيزها الجنساني وعنصريتها، يبرز نجم كوك بسبب جنسها وعرقها ومجالات اختياراتها البحثية. ومن النتائج التي خلصت إليها أن العنصرية والتحيز الجنساني تنشأ عنهما تبعات ضخمة تؤثر على الاقتصاد الأكبر في العالم.

وعلى خلفية حركة «حياة السود مهمة» (Black Lives Matter) وحركة «أنا أيضا» (#MeToo)، ساهمت النتائج التي توصلت إليها في وضع قضايا العرق ونوع الجنس في مقدمة جدول أعمال الاقتصاد، متحدية بذلك مهنتها التي تتعرض لانتقادات شديدة على هذين الصعيدين. واشتهرت أيضا بعملها في مجال التنمية والمؤسسات المالية والأسواق والتاريخ الاقتصادي.

ويقول ويليام داريتي جونيور، أستاذ الاقتصاد والدراسات الأمريكية الإفريقية بجامعة ديوك في مدينة دورهام بولاية كارولاينا الشمالية، «كانت ليزا على استعداد للتخلي عن التميز المهني الذي يليق بها بسبب أبحاثها في مجالات لم يسبقها إليها أحد من قبل. وأصبحت مساهماتها المهمة محل تقدير في الوقت الحالي».

وتعمل كوك حاليا أستاذة للاقتصاد والعلاقات الدولية في جامعة ولاية ميشيغان بشرق لانسنغ، ونُشرت لها دراسات حول مجموعة من الموضوعات بداية من تأثير عدالة الغوغاء في إبطاء وتيرة النشاط الاقتصادي ككل، مرورا بالتأثير الإيجابي للتسمية بالأسماء التي يختص بها ذوو البشرة السوداء على الأعمار، وحتى الخسائر الاقتصادية الناتجة عن إقصاء الأمريكيين الإفريقيين والنساء من عملية الابتكار.

وتتضمن خلفيتها الأكاديمية درجة البكالوريوس من كلية سبيلمان في مدينة أتلانتا بجورجيا، التي اقتصرت الدراسة فيها على ذوي البشرة السوداء على مدار تاريخها، ودرجة بكالوريوس أخرى من جامعة أكسفورد بتمويل من منحة مارشال، ودورة دراسية لنيل درجة الماجستير في الفلسفة من جامعة شيخ أنتا ديوب في داكار بالسنغال. وحصلت على درجة الدكتوراه في الاقتصاد من جامعة كاليفورنيا في مدينة بيركلي.

وفي أوائل هذا العام، تحدثت كوك عبر رابط فيديو أثناء الاحتجاجات التي أعقبت وفاة جورج فلويد على يد الشرطة، وعبرت عن رأيها فيما إذا كانت أحداث هذا العام ستختلف عن سلسلة الاحتجاجات السابقة.

تقول كوك «ربما تكون مختلفة بسبب التشابك الغريب للأحداث، إلى جانب المصادفة التي دفعت المواطنين إلى الاهتمام بالموضوع في ظل حالة الإغلاق العام والتزام المنازل. لذلك أعتقد أن الأمر مختلف هذه المرة».

القضاء على الفصل العنصري في جورجيا

تعرف كوك الكثير عن الاحتجاجات والمطالبة بالتغيير. وتتذكر المحاضرات التي نظمها والدها لتعليم فن كتابة الخطابات للاحتجاج على الفصل العنصري، وكان رجل دين من الطائفة المعمدانية يعمل في المستشفى المحلي. كذلك كان أحد أعمامها وأحد أبناء عمومتها زميلين لمارتن لوثر كينغ الابن في نفس دفعته بالكلية وانضما إلى حركة الحقوق المدنية التي كان يقودها. واقتدت ليزا بهما في شبابها.

وتقول ليزا «كنت أعد احتجاجا كل عام» في كلية سبيلمان. وتضمنت حملاتها مطالبة الكلية ببيع الأصول المملوكة لها في جنوب إفريقيا والاحتجاج على حظر التجول وعدم توافر وجبات خالية من اللحوم وغيرها من المنتجات الحيوانية في مقصف الكلية.

وولدت كوك وشقيقتاها، وكلتاهما على نفس القدر من النجاح المهني — حيث درستا المحاماة وتعملان في المجال نفسه، لأسرة من الطبقة المتوسطة في مدينة ميلدغفيل التاريخية في جورجيا. وكانت ميلدغفيل هي عاصمة الولاية خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر، واجتذبت في حقبة ما قبل الحرب الأهلية الأمريكية الأموال والسلطة من الريف المحيط الذي طوره المستعبَدون الذين تم استقدام وبيع العديد منهم في ساحة المدينة للعمل في مزارع القطن.

ونشأت كوك في الجنوب الذي كان لا يزال يعاني من تداعيات القضاء على الفصل العنصري المعقدة التي كانت تصل إلى العنف في بعض الأحيان. وعندما صدر حكم بفتح المسبح القريب أمام ذوي البشرة السوداء، قام المسؤولون بردمه بالخرسانة بدلا من الامتثال للحكم. وتتذكر كوك أن المقصف الموجود في محل عمل والدها كان المكان الوحيد في المدينة الذي استطاعت أسرتها الخروج لتناول الطعام فيه.

وكان والدها، بايتون كوك، أول رجل دين أسود يعمل في المستشفى المركزي للولاية. وربما تعود أصوله إلى المستعبَدين في جورجيا وفقا لأسرته. أما والدتها، ماري موراي كوك، فكانت ممرضة، وهي أول أستاذة أمريكية إفريقية في كلية جورجيا بمدينة ميلدغفيل حيث تم تعيينها لوضع برنامج التمريض بالكلية.

العنف والنمو الاقتصادي

جمعت كوك ما بين ماضيها وهويتها العرقية وطموح أي اقتصادي معتز بنفسه لتعظيم المنفعة وتعزيز النمو. وجزء كبير من عملها نابع من إدراكها بأن عدم المساواة تتمخض عنه تشوهات سوقية تعرقل النمو.

وتثبت في إحدى دراساتها الرائدة كيف أن العنف ضد الأمريكيين من ذوي البشرة السوداء فرض معوقات على النشاط الاقتصادي ككل، لا سيما الابتكار الذي يعد أساس

الصورة: BRITTANY GREESON

النمو على المدى الطويل. وتستخدم كوك في بحوثها براءات الاختراع التجارية كمقياس ملموس ومؤشر بديل للنشاط الاقتصادي.

واستنادا إلى التاريخ الاجتماعي والاقتصادي، تبحث كوك في تراجع مجموع عدد طلبات الحصول على براءات الاختراع نتيجة الفصل العنصري وعدالة الغوغاء وأعمال الشغب العنصرية خلال الفترة ١٨٧٠–١٩٤٠ التي اتسمت بالعديد من الاضطرابات. فحتى عام ١٩٠٠، كانت طلبات الحصول على براءات الاختراع المقدمة من المخترعين من ذوي البشرة السوداء تسير بنفس معدل طلبات أقرانهم من ذوي البشرة البيضاء. ولكن مع سيطرة تداعيات العنف على المشهد، بدأت تظهر فجوة بين المعدلات التي تراجعت بوجه عام. وبلغ معدل تقديم طلبات براءات الاختراع من المخترعين ذوي البشرة السوداء ذروته عام ١٨٩٩ ولم يتجاوز مستواه في ذلك العام حتى عام ٢٠١٠.

وتقول كوك «يمكن أن تنشأ عن الصراعات تداعيات مستمرة ومزمنة على النشاط الاقتصادي».

وفي تقديرها أنه كان يمكن صدور ١١٠٠ براءة اختراع إضافية لولا أعمال العنف — أي تقريبا نفس عدد الطلبات الذي كان يمكن تقديمه في بلد أوروبي متوسط الحجم خلال الفترة الزمنية نفسها.

الإجابة تكمن في علم الاقتصاد

كان علم الاقتصاد ليغفل عن إسهامات كوك لولا مصادفة جمعتها بشخص لم تكن تعرفه آنذاك. فقد جمعها حديث مع اقتصادي حصل على تدريبه في جامعة كامبريدج أثناء صعودها سفح جبل كيليمنجارو عقب الانتهاء من دراسة الماجستير في السنغال.

وبينما كانت تدرس في هذا البلد، اهتمت كوك بقضايا التنمية، وتساءلت «لماذا توجد بلدان غنية وأخرى فقيرة؟». وأقنعها رفيقها في رحلة صعودها إلى جبل كيليمنجارو — والذي غاب اسمه عن ذاكرتها الآن — بأنها ستجد الإجابة في علم الاقتصاد.

ونتيجة هذه المصادفة، سجلت كوك في برنامج لنيل الدكتوراه في علم الاقتصاد بجامعة بيركلي. ولكنها تعرضت في فصلها الدراسي الأول لحادث ارتطام بالسيارة تركها قعيدة مؤقتا في كرسي متحرك تعاني عدة كسور في ساقيها. ورغم إلحاح والدها وشقيقتها الكبرى، رفضت العودة إلى جورجيا واستكملت دراستها بإصرار.

وتتحدث عن بعض زملائها الطلاب قائلة «كانوا يتجاهلونني».

وتقول عنها شقيقتها الكبرى باميلا كوك «إنها تتمتع بالصلابة والقوة والعزم. وكانت نظرة الناس لها مختلفة حينما ظهرت على كرسيها المتحرك، ولكنها أثبتت خطأهم».

ومن خلال أطروحة الدكتوراه، بحثت كوك في عدم إنفاذ حقوق الملكية في روسيا أثناء حكم القياصرة وبعد انهيار الاتحاد السوفييتي وما نتج عن ذلك من عدم تطور الجهاز المصرفي. وكان باري آيكنغرين هو المشرف على رسالتها في جامعة بيركلي، وأعرب عن اندهاشه من عمق اهتماماتها المتعددة، بداية من التاريخ الاقتصادي الروسي والتنمية في إفريقيا وحتى القضايا التي تتركز حول العِرق.

ويقول آيكنغرين «قبل نشر دراساتها، تساءل البعض عن مدى جديتها نظرا لاهتمامها بمجموعة متفرقة من القضايا. ولكنها أثبتت الآن أنها غاية في الجدية».

وبينما كانت كوك تجري أبحاثها في روسيا، اشتكى بعض أقرانها من ندرة الابتكارات في البلد. وحسب المفاهيم الاقتصادية التقليدية السائدة في ذلك الوقت، كان عدم إنفاذ الحكومة لحقوق الملكية الفكرية هو العائق أمام تدفق الابتكارات.

ولكن كوك كانت مقتنعة أن هذه المفاهيم تتجاهل الشروط المسبقة الأساسية للابتكار، مثل سيادة القانون والشعور الشخصي بالأمان. وتطلَّب اختبار نظريتها استخدام عينة من الأشخاص الذين تعرضوا للعنف وتنقصهم الحماية القانونية أو يعدَمونها تماما، ومجموعة مقارنة تمتع أفرادها بالعدالة في ظل القانون ولم تكن لديهم سوى مخاوف قليلة حيال أمنهم الشخصي. وكان المخترعون الأمريكيون — من ذوي البشرة السوداء والبيضاء — الذين كانوا يعيشون في بداية القرن العشرين بمثابة مجموعة البيانات المثالية.

الحض على ترك دراسة الاقتصاد

بالرغم من الدعم الذي حظيت به بحوثها من جانب عدد من الاقتصاديين المرموقين، مثل ميلتون فريدمان، استغرق نشر الدراسة الأهم على الإطلاق في حياة كوك المهنية والتي تمثل ثمرة بحوثها حوالي عشر سنوات. فقد أحبطها كبار الاقتصاديين بقولهم إن هذه الدراسة قد تتسبب في عرقلة طموحها في التدريس بالجامعة.

فقد قالوا «لا أحد يرغب في التعرف على أوضاع النساء، ولا ذوي البشرة السوداء بالطبع».

وكانت قد قدمت أعمالها لعدد من الدوريات العلمية التي جاء ردها بأن النتائج التي خلصت إليها كوك تقتصر على مجموعة معينة — الأمريكيون الأفريقيون — خلال حقبة تاريخية محددة، وأن بحوثها لا تحمل أي دلالات أبعد من ذلك.

ويقول تريفون لوغان الذي شارك كوك في تأليف عدد من أعمالها، وهو أستاذ للاقتصاد في ولاية أوهايو، إن أصحاب هذه النظرة القاصرة امتد بهم الأمر إلى التشكيك في صحة أطروحتهما.

فقد سئلا عن سبب اهتمامهما بقضية الأمريكيين الإفريقيين. «ما الذي يميز هذا الوضع بعينه؟ لِمَ قد نرغب في التعرف على أوضاع ذوي البشرة السوداء؟»

ويقول لوغان «الأمر مثير للاهتمام، فنحن لا نطرح هذا السؤال مطلقا إذا ما تعلق الأمر بذوي البشرة البيضاء».

ولم يكن هذا الرفض بجديد على كوك، حيث تتذكر ردود أفعال الأساتذة والأقران أثناء إتمام دراساتها العليا في عدد من الجامعات.

وتقول «كان معظم الخريجين من الذكور، ودائما ما كانوا يثنونني عن إعداد رسالة الدكتوراه في مجال الاقتصاد». وأثناء مأدبتي عشاء منفصلتين تم تنظيمهما للطلاب الجدد، تحداها البعض لإثبات قدرتها في علم الرياضيات.

وكان الاستثناء الوحيد ما لاقته من تشجيع من دونالد هاريس — أول باحث أسود يعمل بالتدريس في قسم الاقتصاد بجامعة ستانفورد ووالد كامالا هاريس، نائبة الرئيس الأمريكي المنتخبة.

واليوم تتذكر هاريس قائلة «أعجبت بشغفها بالتعلم، وعزمها القوي على النجاح في دراساتها العليا، ورؤيتها الناضجة حيال الأهداف التي تسعى إلى تحقيقها خلال مسيرتها المهنية».

«ما لا يمكن رؤيته لا يمكن تحقيقه»

تعترف كوك، التي تم انتخابها في اللجنة التنفيذية للرابطة الاقتصادية الأمريكية عام ٢٠١٩، بأوجه القصور الجسيمة التي تنطوي عليها مهنتها.

وكتبت تقول في جريدة نيويورك تايمز العام الماضي «إذا كان مجال الاقتصاد يتبنى موقفا مناهضا للمرأة، فهو يعادي النساء من ذوات البشرة السوداء بوجه خاص». واستشهدت بمسح صادر عن الرابطة شارك فيه ما يزيد على ٩ آلاف من أعضائها، حيث أشار ٦٢٪ من الاقتصاديات من ذوات البشرة السوداء إلى تعرضهن للتمييز على أساس العرق أو نوع الجنس أو كليهما.

وتبلغ نسبة المشاركين في المسح من ذوي البشرة السوداء ٣٪ فقط، مقابل ١٣٪ من السكان الأمريكيين. وأشار ٤٧٪ من هؤلاء المجيبين إلى تعرضهم للتمييز في مجال الاقتصاد، وأشار أقل من نصف المجيبين على اختلاف أعراقهم إلى اعتقادهم بأن الاقتصاديين من غير ذوي البشرة البيضاء يحظون بالاحترام والتقدير.

وتقول كوك «إن السبيل الوحيد لاستمرارية التنافسية والحيوية وخلق المعرفة في مهنتنا هي حشد أفكار عديدة ومختلفة قدر الإمكان والاستفادة منها، وإلا ستندثر المهنة».

وترغب كوك بشدة في بناء كوادر اقتصادية مستقبلية أكثر تنوعا. وتشغل في الوقت الحالي منصب مدير البرنامج الصيفي في الرابطة الاقتصادية الأمريكية، حيث تسعى إلى تعيين أعضاء من المجموعات التي لا تحظى بالتمثيل الكافي، وغالبا ما تقدم لهم النصح والإرشاد اللازمين. ومن بين هؤلاء آنا غيفتي أوبوكو–إيجيمان البالغة من العمر ٢٤ عاما، وهي أمريكية مولودة في غانا، وشاركت كوك في كتابة مقال الرأي المنشور في جريدة نيويورك تايمز حيث قالت إنها ترى في كوك نموذجا تقتدي به.

وتقول أوبوكو–إيجيمان «أعتقد أن الأمر كله يتعلق بكونها امرأة من ذوات البشرة السوداء. فلو كانت رجلا أبيضَ، لما شعرت بنفس القدر من الحماس، ولما كان للأمر نفس الدلالة». وتقتبس من ماريان رايت إيدلمان الناشطة في مجال حقوق الأطفال قائلة «ما لا يمكن رؤيته لا يمكن تحقيقه».

تعظيم الفرص

من أهم النتائج التي خلصت إليها كوك أن إقصاء الأمريكيين من ذوي البشرة السوداء والنساء من الصناعات التي يقوم عليها الابتكار التكنولوجي يُفقد الاقتصاد الأمريكي حوالي تريليون دولار أمريكي سنويا. وحسب تقديراتها، تخسر الولايات المتحدة سنويا ما يصل إلى ٤,٤٪ من نصيب الفرد من إجمالي الناتج المحلي. وتبلغ الخسائر الناتجة عن إقصاء النساء فقط ٢,٧٪.

وبالنسبة لمن يشيدون بكوك، لا يتسم عملها بالأصالة وولوج المخاطر وحسب بل إنه يحمل الكثير للولايات المتحدة في ظل ما تشهده من صراع حالي مع تاريخها المشوب بالعنف والظلم العنصريين.

ولكن هذه النتائج تقود إلى تساؤل آخر عن المجموعات التي تتمتع بالمزايا بفضل هويتها: لِمَ قد يتنازل هؤلاء عن مزاياهم طوعا؟ ترد كوك بأن ذلك يخدم مصلحتهم أيضا في نهاية المطاف.

فرفض الأفكار المتميزة — بغض النظر عن مصدرها — وحرمان قطاعات كبيرة من السكان من الفرص يتسببان في خسائر لذوي الامتيازات أيضا.

ولشرح وجهة نظرها، تسوق كوك مشهدا من فيلم «شخصيات مطموسة» *(Hidden Figures)* الذي أنتجته هوليود عام ٢٠١٦، حيث تركز الحبكة الدرامية على ثلاث عالمات في مجال الرياضيات من ذوات البشرة السوداء اللاتي عملن في وكالة ناسا أثناء حقبة سباق الفضاء بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي في الستينات.

ففي أحد المشاهد، يطلب رائد الفضاء جون غلين من وكالة ناسا «استدعاء الفتاة لمراجعة الأرقام». وكانت «الفتاة» هي الأمريكية الإفريقية كاثرين جونسون التي كانت تلقب باسم «الكمبيوتر البشري» في قسم بحوث الطيران في وكالة ناسا. فقد كان رائد الفضاء — الذي أدرك المهارات الفريدة التي تتمتع بها جونسون — واثقا في قدرتها على التحقق من مسار كبسولة الفضاء.

وتتذكر كوك المشهد قائلة «ها هو جون غلين يقول 'أنا أثق بك، فأنت الوحيدة التي تعلم كيفية القيام بهذا الأمر'. فهو يعتمد على امرأة سوداء للوصول إلى القمر مفضلا إياها على أقرانها من الذكور من ذوي البشرة البيضاء».

وتعد النتائج البحثية التي خلصت إليها كوك بمثابة دعوة مدوية لا لدمج تنوع الفكر فحسب، ولكن لدمج تنوع التجارب الحياتية أيضا — ليس في مجال الاقتصاد وحده، بل في العالم أجمع. وترى كوك أن الفشل في تحقيق ذلك سنتحمل تكلفته جميعا. FD

هيون–سونغ كانغ من فريق العمل في مجلة التمويل والتنمية.